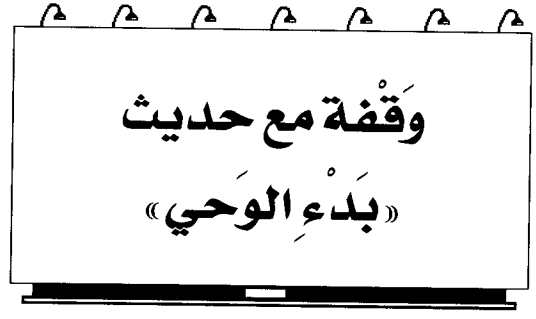
وَقْفة مع حديث
«بَدْءِ الوَحي»

وقفة مع حديث بَدْء الوحي

كانت (صاحبة الحرير الأخضر) مدركةً تماماً لمعنى علاقتها بمحمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، ومقدِّرةً كلَّ التقدير لمعنى كونها زوجةً له، وحبيبةً تحتلُّ من نفسه المكانة التي يعرفها الناس.

إنها ذات عقلٍ راجح، وبصيرة ثاقبة، وعاطفةٍ جيَّاشة وإيمان بالله راسخ رسوخ أحُدٍ، وسَلْعٍ، ورضوى.

فهي تعلم علمَ اليقين أنَّها دخلت إلى المجد من أوسع أبوابه، وأصبحت من المسؤولية الزوجية، والعلمية والدعوية في الصميم، ولذلك أصبح موقعها في الأمة المسلمة مهماً، وصارت رسالتها في الدنيا كلها رسالة عظيمة.

هنا تكوَّنت شخصيَّتها العلمية الرزينة، ومكانتها الزوجية المكينة، وهنا برز اسمها - برغم صغر سنها - بين أهم رواة الحديث الشريف، وحازت قصب السبق في مجال الحديث عن بعض التفاصيل الخاصة بحياة رسول الله ﷺ المتعلِّقة بجبريل في مجال الوحي، وبأقرب أصحابه إليه في مجالات الدعوة، والعلاقات السياسية، وبزوجاته وأهله في مجال العلاقات الأسرية والاجتماعية.

إنَّ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما استطاعت أن تكون الزوجة المتميِّزة لأفضل الخلق، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الزوجة التي قال عنها زوجها الحبيب الذي لا ينطق عن الهوى: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

ومعنى ذلك أنَّ مستواها الرَّاقي في الفهم، والعلم، والبلاغة والبيان مناسب لموقعها المهم.

إنَّنا نَدْلُفُ إلى رياضٍ غنَّاء، وبساتينَ فَيْحاء، حينما تكون الراوية للحديث أو الخبر أو القصة هي (صاحبة الحرير الأخضر).

قالت عائشة: أوَّل مابُدئَ به الرسول ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رُؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَق الصُّبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - وهو التعبُّد - اللَّيالي ذَواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّدُ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءَه المَلَك فقال: اقرأْ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلتُ: «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾.

فرجع بها الرسول ﷺ يرجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زمِّلوني، زمِّلوني». فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت له خديجة: كلاَّ والله ما يحزنك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبدالعُزَّى - ابنَ عم خديجة - وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العبرانيّ فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أنْ يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: يا ابن عَمٍّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حيَّاً إذْ يُخرجُك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخرجيَّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قَطُّ بمثل ما جئتَ به إلاَّ عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني يومُك، أَنْصُرْكَ نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشَبْ ورقة أن تُوفِّي وفَتَر الوحي» - صحيح البخاري -.

ياله من وصف دقيق لهذا الحدث العظيم.

ماذا نقول عن هذا الأسلوب الرَّاقي الذي تشتدُّ أواصر كلماته وجمله، حتى لا تكاد كلمة تستغني عن صاحبتها، ولا تكاد جملة تطمئنُّ دون رفيقتها؟

إني أتذكَّر أمام هذا النص العلمي الشرعي الأدبي قول ربيعة ابن حُذار الأسدي للشاعر الجاهلي عَلْقَمة بنَ عَبدة: شعرك يا عَلْقمة كَمزَادةٍ قد أُحكِمَ خَرْزُها، فليس يقطر منها شيء.

أتذكَّر هذا القول، وأنا أرى أنَّ أحاديث صاحبة الحرير الأخضر أَوْلى به لما فيها من الإحكام.

من أين جاء التميُّز في حديث عائشة عن بَدْءِ الوحي؟

جاء من جوانب متعددة:

١- من جانب أهمية الموضوع وعظمته، فهو موضوع بداية دين شامل كامل، وبدايةِ لقاءٍ بين مَلَكٍ كريمٍ هو جبريل، ونبيٍّ من البشر كريم هو محمد بن عبدالله، إنه موضوع رسالة عظيمة وكفى.

٢- من جانب تسلسل الوقائع، وانتظام السياق، وتماسك الأسلوب، حتى أصبحنا مع الحديث أمام سلسلة مترابطة لا يستطيع الذهن أن ينصرف عن حَلْقةٍ من حلقاتها دون الأخرى.

٣- من جانب اختيار الكلمات والجمل ذات الجودة العالية والبلاغة الراقية: «مثل فَلَق الصبح»، «يتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد»، «قبل أن يَنْزِع إلى أهله»، «فرجع بها الرسول ﷺ يَرْجُفُ فؤاده»، «فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع»، «ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفَتَر الوحي».

٤- من جانب المعلومات المهمة التي وردت في الحديث بقصد الإيضاح والبيان، فقد رسمت لنا عائشة شخصية ورقة بن نوفل رَسْماً دقيقاً واضح المعالم، وسردت لنا معلومات مهمة عن شخصية الرجل وعلمه، ونسبه، وعلاقته بالإنجيل واللغة العبرانية، وشيخوخته، مما يدلُّ على علمها رضي الله عنها.

٥- من جانب رسم معالم الدور الكبير الذي قامت به خديجة رضي الله عنها في حالة مهمةٍ كهذه الحالة التي مرَّ بها الرسول ﷺ في بدء نزول الوحي عليه، إنها تغار من خديجة لشدة عناية الرسول ﷺ بها بعد موتها، ولكنها هنا في مقام العلم، فلا مكان للغيرة، إنما المكان للأمانة والصدق.

٦- من جانب أهمية الموضوع - بصفة عامة - في بيان اللحظات الأُوَل المهمّة في رحلةِ اليقين الجديدة التي بدأها - باختيارٍ من الله عز وجل - خاتم الأنبياء والمرسلين.

بهذه الجوانب أصبحنا أمام قامة بلاغية سامقة، لا نملك إلاَّ أنْ نقدِّرها، ونضعها في المقام المناسب لها من ذروة سنام البيان العربي.